مقتطفات من كتاب
داغستان بلدي
رسول حمزاتوف



كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com



يقول حمزاتوف: "إن الشاعر الذي يعتبره القرّاء في بلاده المتحدث الرسمي باسمهم لهو شاعر سعيد.. ولا قياس للإنسان أفضل من عمله". ويقول: "شيئان في الدنيا يستحقان المنازعات الكبيرة.. وطن حنون وامرأة رائعة.."

«العصفور الذي يبدل أعشاشه دائماً ولا يعرف انتقاء واحد منها يبقى أخيراً دون عش. أليس خيراً لو بنى له عشاً؟ وإذن فهو عندئذ في غير حاجة إلى انتقاء عش من بين الأعشاش».

لقد نقش الشيخ شامل على سيفه حكمة من حكمه: «من فكر، قبل المعركة، في نتائجها فليس شجاعاً».

كلا يا أولادي، عندما أمسك بالقلم تهرب مني القصائد، وذلك لأني عندئذ لا أفكر في القصائد، وإنما أفكر في طريقة الإمساك بهذا القلم اللعين.

يقولون: سم الأفعى يمكن أن يكون ترياقاً إذا كان في أيد ماهرة، وعسل النحل يمكن أن يكون سماً إذا كان في يدي أحمق.

نعم لقد أخذت من أبي شيخوخته وأعطيته شبابي.

عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك كأن أحداً عضك، فكر قبل كل شيء بما حلمت به في نومك.

إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك.

حجارة نحن. ما تلبث أن نرصف في جدار قصر أو معبد أو سجن
(كتابة على حجر)

كان هنالك جماعة من المريدين[1] يتفاخرون بسيوفهم أيها أكثر مضاء وبفولاذها الذي صنعت منه، وبالآيات القرآنية التي كتبت على نصالها، وكان بينهم الحاج مراد نائب[2] الشيخ شامل فقال لهم:

ـ وعلام تتنازعون في ظل أشجار الدلب الظليلة؟ غداً تخوضون المعركة منذ الفجر وعندئذ تقرر سيوفكم نفسها أيها أقوى وأشد مضاء.

الأطفال الصغار يرون أحلاماً كبيرة.
(كتابة على مهد)

السلاح الذي تحتاجه مرة واحدة عليك أن تحمله العمر كله.
والأبيات التي ستردّدها العمر كله تكتب مرة واحدة.

أيها السادة، لقد اجتمعتم هنا من بلدان مختلفة. إنكم تمثلون شعوباً مختلفة. أنا هنا وحدي لا أمثل شعباً معيناً أو بلداً معيناً، بل أمثل كل الأمم وكل البلدان، أمثل الشعر. أجل، أنا الشعر. أنا الشمس التي تنير الأرض كلها، أنا المطر الذي يروي الأرض، دون أن يفكر في القومية التي ينتمي إليها، أنا الشجرة التي تزهر وحيدة في كل أرجاء الكرة الأرضية.

استجمع أفكارك كقطعان خيول منتقاة، الفرس تزحم الفرس والهجين لا وجود له بينها، أطلق هذه القطعان إلى مراعي الصحائف البيض. ولتعدُ الأفكار على الصحائف كجياد أجفلت أو كقطيع تيوس جبلية. لا تخبئ أفكارك. إذا خبأتها فستنسى فيما بعد أين وضعتها. أليست هذه حال البخيل، ينسى أحياناً المخبأ الذي وضع فيه نقوده فيخسرها. لكن لا تعط أفكارك للآخرين. الآلة الغالية لا يجوز أن تعطى الطفل بدلاً من اللعبة. فإما أن يكسر الطفل، اللعبة، وإما أن يضيعها، وإما أن يجرح يده بها.

لا أحد يعرف عادات حصانك خيراً منك أنت.

ما دام الإنسان يجلس، فلا يعرف إن كان أعرج أو لا،
ما دام الإنسان ينام، فلا يعرف إن كان أعور أو لا.
ما دام الإنسان يأكل، فلا يعرف إن كان جباناً أو بطلاً
ما دام الإنسان يصمت، فلا يعرف إن كان كاذباً أو صادقاً.

عند طرف القرية وضعت جبلية شابة على نافذة بيتها شمعة مشتعلة، وكانت بهذا تقول:

ـ لا تنسَ هذه النافذة، لا تنس هذا الضوء. إنه لن ينطفئ إلى أن تعود. إنه سيضيء لك عبر الأيام والسنين في طريقك البعيدة وفي لياليك العاصفة الصعبة. وحين ستقترب من قريتنا العزيزة، وقد أضناك التجوال، سيكون أول ما يلوح لعينيك. فاذكر هذه النافذة وهذا الضوء.

الخنجر الراقد دائماً في غمده يصدأ
الفارس الراقد دائماً في بيته يترهل.
كتابة على خنجر

قال أحد الكوباتشينيين: «الذهب أو الفضة لا يعنيان شيئاً بذاتهما. المهم أن يكون للمعلّم الصائغ يد ماهرة».

وأيضاً، مهما يكن الخنجر المصنوع من خشب جميلاً، فلن تذبح به صوصاً. إنه لا يصلح إلّا لتقطيع خيوط المطر.

أروع الجرار
تصنع من الطين العادي
وأروع الأشعار
من الكلمات البسيطة
(كتابة على جرّة)

لغات الشعوب بالنسبة لي، كالنجوم في السماء. أنا لا أودّ أن تذوب النجوم كلها في نجم واحد ضخم يُغطي نصف السماء. الشمس كفيلة بذلك. لكن لندع النجوم تتلألأ هي الأخرى، ولتكن لكل إنسان نجمة. أنا أحب نجمي ـ لغتي الأفارية الأم. وأنا أصدق الجيولوجيين الذين يقولون إنه قد يوجد في الجبل الصغير ذهب كثير.

إحدى النساء صبّت على رأس امرأة أخرى هذه اللعنة: ـ ليحرم اللّٰه أولادك اللغة التي تتكلم بها أمهم.

سألت أبا طالب مرة:

ـ كيف أحوالك؟

ـ لا بأس. ليست كأحوال الذئب، ولكن ليست كأحوال الأرنب. وسط. ثم صمتَ قليلاً وأردف: أسوأ حالة يمر بها الكاتب هي هذه الحالة ـ الوسط. يجب أن يشعر إما أنه ذئب يأكل الأرنب، أو أنه أرنب هارب من الذئب.

إني أكتب منك يا داغستان، عظيماً كان حبي أو ضئيلاً جداً، خجلة كانت حقيقتي أو عميقة، قديمة كانت عواطفي أو حديثه، لا فرق. وحين أكتب يرتجف القلم في يدي على الرغم مني.

كان والدي يقول: إذا كان حقل البطيخ على درب، فكل من يمر سيقطف بطيخة ولو غير ناضجة.

ويقال: لا تمسك حجراً لا تستطيع رفعه. ولا تبلغ في سباحتك مكاناً لا تستطيع العودة منه.

ويقال: إذا بلغ الماء في الساقية رسغيك لا تشمر إلى ما فوق ركبتيك.

لا تكسر الباب ـ إنه يفتح بالمفتاح بسهولة

كتابة على باب

لا تقل: «أعطني موضوعاً»

بل قل: «أعطني عينين»

نصيحة إلى كاتب شاب

حين قيل لأمي، وكانت مريضة آنذاك، إن ابنها منح جائزة لينين، تنهدت وقالت: «بشرى سارة. لكن سروري يكون أعظم، لو سمعت أن ابني ساعد فقيراً أو يتيماً. عليه أن يخصص هذه الأموال لجر الماء إلى القرى العطشى. عندئذ يمدحه الناس. عندما نال أبوه الجائزة، كرّس قيمتها كلها للبحث عن ينابيع جديدة. فحيث النبع، هناك الدرب الجبلي، وحيث الدرب هناك الطريق. والطريق ضروري للجميع ولكل واحد بمفرده. الإنسان لا يجد بيته بدون طريق، بل يسقط في الهاوية».

الجميع يعرفون ما هم في حاجة إليه، لكنهم لا يستطيعون كلهم بلوغه. الجميع يرون هدفهم، إنما لا يستطيع أي كان أن يبلغه. وهناك أناس يبدو لهم أنهم يعرفون كيف يجب أن يكتب كتاب، لكنهم لا يستطيعون كتابته.

يقال: الإبرة الواحدة تخيط ثوب العرس والكفن.

يقال: لا تفتح باباً لا تستطيع بعد ذلك أن تسده.

وهكذا إما أن تكون صاحب عبقرية أو لا تكون. لا يستطيع أحد أن يهب لك العبقرية، ولا يستطيع أحد أن ينتزعها منك. يجب أن يولد الإنسان وتولد معه عبقريته.

«الأحمق يضرب بالصراخ والعاقل يضرب بحكمة تقع موقعها». «غن إذا حل الربيع، واحك حكايا إذا جاء الشتاء»

«احترق لتضيء»

(كتابة على سراج أيقونة)

إذا ظننت أن عملنا عسل على الدوام فتعال إلى كوباتشي، تعال إليها يوماً واحداً.

(كتابة على آنية صنعها صاغة كوباتشي).

ما أزال أذكر كيف كان أبي يعلمني كيف أجمع الأعشاب حزمة حزمة عندما كنت صغيراً. وعندما كنت أشد نطاق الحزمة بكل قواي، وأنا أعتمد على ركبتي كان ينصحني:

ـ انتبه يا رسول.. لا تخنق العشب.

واليوم عندما تستعصي علي قصيدة، وعندما يفر مني بيت رغم كل ما أبذل من جهود لإقراره في موضعه أراني أضرب ضربة صاعقة لأنهي القصيدة مهما كلف الأمر. عندئذ أتذكر كلمات والدي: «انتبه يا رسول. لا تخنق العشب».

أليس يصح هذا على الشعر. أنت عانيت العذاب في نظم قصيدتك. كل كلمة فيها، كل فاصلة فيها، عزيزة عليك. ولكن عندما تلتقط فكرة في الطريق فلن تحصل أبداً على قصيدة ثمينة حقاً.

الصاغة، جيراني
رأيتهم مراراً في يسر بالغ
يستعملون معيارهم
ليميزوا الذهب من النحاس
وأنت أيها القارئ الذي تعرف قيمة الأشياء
ليتك تساعدني في استعمال معيارك
لتمييز العملة النحاسية
التي تتوارى خلف زخارف الشعر وبهارجه
لتدعي أنها عملة ذهبية

يقال: إن القصائد تخشى الماء. القصيدة نار، وفن الشاعر لهب. الحق أن القصائد لا ينبغي أن تكون مائية، ولكني أسأل اللّٰه أن يصونها أيضاً من النار التي التهمت مخطوطتي في غرفة الفندق.



كل من يعمل بروحه، وكل من يحب أن يرى نتائج عمله يفهم عذاب صناع الفخار.

قال أبو طالب: إذا تعفن الماء، فلن تستطيع أن ترى القاع، مع أن الماء لا يتجاوز الركبة.

والمترجمون كثيراً ما يقلعون أسنان القصيدة ويرمونها بفم فارغ أهتم

«الشعوب الصغيرة في حاجة إلى خناجر كبيرة» هكذا قال شامل عام 1841.

«الشعوب الصغيرة في حاجة إلى أصدقاء كبار» هكذا قال أبو طالب عام 1941.

ـ كان أبي يقول: لا تمزح مع النار!

ـ كانت أمي تقول: لا ترم الحجارة في الماء.

يقولون: الرجل الشجاع يجب أن يظل على صهوة حصانه أو على ظهر الأرض.

«الكلمات كالرصاصات لا تهدرها سدى».

يقولون:

ـ ما هو أشد ما في العالم حقارة وشناعة.

ـ الرجل الذي يرتجف خوفاً.

ـ وما هو أشد من ذلك حقارة وشناعة.

ـ الرجل الذي يرتجف خوفاً.

كان والدي يقول أحياناً: «تستطيع بمفتاح صغير أن تفتح صندوقاً كبيراً». وكانت أمي تحكي لنا حكايا مختلفة: «البحر كبير؟ كبير. ومن أين أتى؟ عصفور صغير نقر الأرض بمنقاره الأصغر منه، فتفجر ينبوع. ومن الينبوع تشكل البحر العظيم».

حين تتشاجر جبليتان مسنتان، تصرخ إحداهما: «لا كانت نار في موقدك».. وتجيبها الأخرى: «فلتنطفئ النار المشتعلة الآن في موقدك».

حين يود أحدهم أن يقول شيئاً في شجاع، يقول: «هذا ليس بشراً، إنه نار».

وجبالنا تشبه في الواقع ناراً تحجرت. وهكذا، فلنتحدث قليلاً عن النار.

اصلم صخرة بصخرة، تومض شرارة نار.
اضرب كفاً بكف، تومض شرارة نار.
اصلم كلمة بكلمة، تومض شرارة نار.
انقر بإصبعك على أوتار المزمار(*) تومض شرارة نار.
انظر إلى عيني النافخ في المزمار والمغني ترى شرارات نار.

قال أبو طالب ما يلي: «فيما مضى كان في قريتنا سكير واحد، وقد اشتهر بهذا وأصبح معروفاً في المنطقة كلها. والآن لا يوجد في قريتنا إلا صاح واحد، ويأتي الناس من أماكن بعيدة لينظروا إليه كأنهم ينظرون إلى معجزة».

ويقول أنبياء الحب المشهورون:

انطفأت الحياة، وتجمّد الدم
كان حبهما صادقاً
جسدان، وحب واحد
حياتان، وموت واحد.

احفروا قبراً لهما كليهما
وليكن واسعاً
فرقتهما الحياة فترة
وجمعهما الموت إلى الأبد.

تلفهما بعباءة واحدة
ونهيل عليهما التراب
وشاهدة واحدة
تنصبها فوق قبرهما.

والكتب أيضاً شجاعة.

الكتاب... الحروف، السطور، الصفحات. يبدو وكأنه مجرّد ورقة. لكنه موسيقى الكلمة، ورخامة اللغة، والفكرة، إنني أنا الذي كتبته، والآخرون هم الذين كتبت عنهم، والذين كتبوا هم أيضاً عن أنفسهم؛ إنه الصيف القائظ، والعاصفة الثلجية، وأحداث الأمس، وأحلام اليوم، وأفعال الغد.

تاريخ العالم، كمصير أي إنسان، يجب أن نقسمه إلى قسمين: قبل ظهور الكتاب وبعد ظهور الكتاب. الفترة الأولى ليل، الفترة الثانية نهار ساطع. الفترة الأولى وادٍ ضيّق مظلم، والثانية سهل واسع أو قمّة جبل.

كان والدي يقول: «لا بدّ أن الجهل جريمة، عاقبنا عليها التاريخ طوال هذا الوقت وبمثل هذه الصرامة».

لو أن شاهات إيران لم يأتوا داغستان يحملون الحديد والنار، بل حكمة الفردوسي، وحب حافظ، ورجولة السعدي وفكر ابن سينا، لما اضطروا إلى الفرار لا يلوون على شيء!

في نيسابور زرت قبر عمر الخيام. وهناك فكرت قائلاً في نفسي: «صديقي الخيام! أنت لا تعرف مقدار البهجة التي كانت شعوب الجبال ستستقبلك بها، لو جئت أنت آنذاك بدل الشاه!».

كان والدي يقول: «أكتب عما تعرف وتستطيع. أمّا ما لا تعرفه فاقرأه في كتب غيرك».



كانت اللغة العربية منتشرة في داغستان على وجه العموم. بعضهم كان يكتب بالعربية لأنه لم تكن لداغستان أبجديتها. وبعضهم لأنها كانت تبدو له أغنى وأبهى من اللغات الداغستانية. وكانت تكتب بالعربية كل الأوراق والوثائق الرسمية. وكل الكتابات على شواهد القبور كانت بحروف عربية مزخرفة. وكان والدي يجيد قراءة هذه الكتابات وتفسيرها.

داغ تعني الجبل، وستان تعني البلد. فداغستان هي بلد الجبال، البلد ـ الجبل، البلد الجبلي، البلد الأبي، هي داغستان.

وعلى الأبواب رأيت نقشاً: «الماء يشتعل في الموقد، تفضل» وأسفاه ليس لدى داغستان مثل هذه الأبواب التي كان من الممكن أن ينقش عليها: «النار تشتعل في الموقد، تفضل».

حدِّد من فضلك في أي قارة تقع داغستانك هذه؟

ـ إحدى قدمي في آسيا والأخرى في أوروبا. يحدث أن يضع رجلان أيديهما في وقت واحد على عنق الجواد، كل من جانب. هكذا تماماً وضعت القارتان أيديهما من الجانبين على سلسلة جبال داغستان. وتشابكت أيديهما على أرضي، وأنا مسرور بذلك.

إن مقارنة داغستان بالبلدان الأخرى أمر ليس له معنى. فداغستان في خير حيث هي. السقف لا يرشح، والجدران غير مائلة، والأبواب لا تصر، والريح لا تنفخ من خلال النوافذ. المكان ضيق في الجبال، لكنه رحب في القلوب.

كانت أمي تقول: إن الفم الصغير يستطيع أن ينطق كلمة كبيرة. وكان أبي يقول: إن الشجرة الصغيرة قد تزين حديقة كبيرة. أما شامل فكان يقول إن الرصاصة الصغيرة تثقب سفينة كبيرة. وأنت نفسك قلت في أشعارك إن القلب الصغير يسع العالم الكبير والحب الكبير.

لكن الذين خرجوا بحثاً عن الحقيقة، تبين أن طريقهم هي أطول الطرق، وأنها لا حدود لها.

من خرج يبحث عن الحقيقة، حكم على نفسه بأن يبقى دائماً في الطريق.

«الضيف القادم من بعيد هو الأغلى» هذا ما كان أبو طالب يحب ترداده. فالضيف لا يأتي به من بعيد إلا فرح كبير أو حب كبير أو حزن كبير. الإنسان اللامبالي لا يأتي من بعيد.

كان والدي يحب أن يقول: «من عنده بحر، يأتيه كثير من الضيوف».

كان والدي يقول: تعلم، وأنت تنصت إلى البحر، أن تفهم ما يقول. لقد رأى الكثير، ويعرف الكثير.

ـ قل لي، أيها البحر، لماذا أنت مالح؟

ـ الدمع الإنساني في أمواجي غير قليل!

ـ قل لي، أيها البحر، بماذا أنت ملون؟

ـ المرجان في أعماقي دفين!

ـ قل لي، أيها البحر، لماذا هذا الاضطراب؟

ـ في لجتي هلك الكثير من الشجعان:

بعضهم كان يحلم بأن لا أكون مالحاً،

وبعضهم غطس يبحث عن المرجان!

كان والدي يقول: إذا ظهر البحر قبيحاً للإنسان، فمعنى ذلك، أن الإنسان نفسه قبيح.

الإنسان والحرية يسميان في اللغة الآفارية باسم واحد «أوزدن» هو الإنسان، و«أوزدنلي» هي الحرية، فحين تقول «الإنسان» تقول «الحرية».

كتابة على شاهدة قبر:

لم يكن حكيماً،
لا ولم يكن شجاعاً،
لكن انحن له:
فقد كان إنساناً

قاعدة الجبليين هي: بع الحقل والبيت، وافقد كل ما تملك. لكن لا تبع الإنسان فيك ولا تفقده.

لعنة الجبليين هي: لا كان في عشيرتك إنسان ولا حصان.

كتابة على خنجر:

أيا كان الذي تقابله في الطريق،
عدواً كان أو صديقاً،
فهو مثلك تماماً، إنسان
فلا تنس هذا وأنت تحمل خنجرك!



حين يولد صبي، يوضع تحت مخدته خنجر. وعلى الخنجر مكتوب: «كانت لوالدك يدٌ لا أرتجف فيها، فهل لك مثل هذه اليد؟».

وحين تولد بنت يعلقون فوق سريرها جرساً صغيراً كتب عليه: «ستكونين أختاً لسبعة إخوة».

سأل شامل ذات مرة أمين سره محمد طاهر الكرخي:

ـ كم إنسان يعيش في داغستان؟

أمسك محمد طاهر سجلاً بعدد السكان وأجابه.

لكن شاملاً غضب وقال له:

ـ أنا أسألك عن الناس الحقيقيين.

ـ ولكن ليس لديّ مثل هذه المعطيات.

فأمره الإمام قائلاً:

ـ لا تنسَ أن تحصيهم في أقرب معركة.

كانت أمي تلقنني ما يلي: «لا مكافأة أكبر من الاسم، ولا كنز أغلى من الحياة. فحافظ على هذا».

كان هناك ثلاثة شيوخ حكماء يراقبون داغستان. لقد عاشوا قروناً طويلة، ورأوا كل شيء وعرفوا كل شيء. يقول أولهم، وهو يحدق في التاريخ القديم وينظر إلى المقابر القديمة، ويتأمل الطيور المحلقة في الجو: «كان هناك أناس في داغستان». ويقول الثاني، وهو يرى عالم اليوم، ويشير إلى الأنوار المشعة في داغستان، ويردّد أسماء الشجعان: «يوجد أناس في داغستان». ويقول الشيخ الثالث، وهو يتطلع بفكره إلى المستقبل ويقوم الأساس الذي أرسيناه اليوم للغد: «سيكون هناك أناس في داغستان».

الثلاثة كلهم على حق في رأيي.

في غونيب الأعلى بقي حجر عليه هذه الكتابة: «على هذا الحجر جلس الأمير بارياتنسكي وهو يتقبل استسلام شامل».

وقال بارياتنسكي لأسيره.

ـ عبثاً كانت كل جهودك، كل جهادك.

وأجابه شامل:

ـ كلا، لم تكن عبثاً. وستبقى ذكراها في قلب الشعب. لقد جعل جهادي من أعداء كثيرين أخوة، ووحّد قرى كثيرة كانت تتنازع فيما بينها، وأصبحت شعوب داغستان الكثيرة، التي كانت تتعادى فيما بينها ويردّد كل منها «شعبي» «أمتي»، شعباً داغستانياً واحداً. لقد غرست الشعور بالوطن، الشعور بداغستان الواحدة، وهذا الشعور أخلفه لأحفادي. فهل هذا شيء قليل؟